

حركة العلوم الدينية في تلمسان الزيانية خلال القرون 7-9 هـ / 13-15 م

The Movement of Religious Sciences in Zayyanid Tlemcen during the 7th–9th Centuries AH / 13th–15th Centuries CE.

عبد الكريم شباب¹

¹ جامعة سعيدة (الجزائر)،

chebabkrim@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025-07-10 تاريخ القبول: 2026-04-08 تاريخ النشر: 2026-05-19

ملخص: يعتبر حقل العلوم الدينية من أبرز المجالات التي نالت الاهتمام لدى دول الإسلام خلال الفترة القروسطية، ولم تشهد دول بلاد المغرب عن هذا المسلك، ومنها الدولة الزيانية (633-962 هـ / 1236-1554 م) التي اتخذت من تلمسان عاصمة لملكها، التي ازدهرت بها العلوم والفنون والآداب، وخاصة العلوم الدينية، من فقه وتفسير وعلوم الحديث، علم التصوف. وكان هذا الازدهار سمة لافتة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، نتيجة تظافر ظروف وأسباب ساعدت في تنشيط حركة العلوم والمعارف، واشتهار أعلام العلماء، وانتشار دور العلم من مدارس ومعاهد ومساجد، مستقطبة فئات عديدة من طلبة العلم قدموا من جهات مختلفة، تصدى للتدريس بها علماء أفذاذ. يهدف هذا البحث إلى استجلاء عوامل ازدهار وأبعاد هذه الحركة العلمية النشطة التي طبعت العلوم الدينية بوجه خاص. واستخدمنا المنهج التحليلي الذي يقوم على تمحيص المادة التاريخية وإعادة قراءتها واستثمارها في كتابة تاريخية هادفة وموضوعية. ومن النتائج المتوصل إليها من خلال هذا البحث، أن تلمسان كانت حاضرة علمية بامتياز استقطبت علماء أعلاما، وكونت علماء وفقهاء ومحدثين ومتصوفة نالوا من العلوم بسهم وافر. ولعل مرد هذا الإشعاع يعود لرجال الحكم، الذي حرص العديد منهم على منافسة الحواضر العلمية البارزة في بلاد الغرب الإسلامي، بتنشيط العلوم وبناء المدارس والمساجد التي تحقق الغاية المقصودة.

كلمات مفتاحية: تلمسان؛ علم الفقه؛ علوم الحديث؛ علم التصوف.

Abstract : The field of religious sciences was among the most prominent areas of interest in Islamic states during the medieval period, and the Maghreb countries were no exception. Among them was the Zayyanid state (633–962 AH / 1236–1554 CE), which made Tlemcen its capital. This city witnessed a flourishing of sciences, arts, and literature, especially religious sciences such as jurisprudence (fiqh), Quranic exegesis (tafsir), Hadith studies, and Sufism. This flourishing was particularly notable during the 7th and 8th centuries AH due to a convergence of factors that stimulated the movement of knowledge and sciences. It led to the rise of prominent scholars and the spread of educational institutions such as schools, institutes, and mosques that attracted many students from different regions. These institutions were staffed by distinguished scholars. The aim of this research is to explore the factors and dimensions of this active scientific movement, particularly in the realm of religious sciences. We adopted the analytical method, which involves scrutinizing historical material and reinterpreting it for the purpose of writing meaningful and objective history. One of the key findings of this study is that Tlemcen was an outstanding scientific hub that attracted leading scholars and produced jurists, Hadith scholars, and Sufis who were well-versed in religious sciences. This intellectual prominence can be attributed to the state's rulers, many of whom were keen to compete with the major scientific centers of the Islamic West by promoting knowledge and establishing schools and mosques to fulfill this mission.

Keywords: Tlemcen, Jurisprudence, Hadith Sciences, Sufism.

* المؤلف المرسل.

مقدمة:

إن ظاهرة الإقبال على تعلّم العلوم الشرعية المرتبطة بالدين الإسلامي، تعدّ من أبرز السّمات التي طبعت العلم لدى المسلمين خلال العصر الوسيط، وهذا نظرا لارتباط هذه العلوم بضبط وترتيب الحياة الخاصّة والعامة للإنسان المسلم، كما يفسّر هذا الإقبال برغبة ذاتية لدى العديد من المسلمين لنيل الثواب والجزاء الرباني بتعلم العلوم الدينية. وقد قدّمت المدوّنة الإسلامية، خاصة القرآن الكريم الجزاء الإيجابي للمؤمن الذي يتفقه في دينه.

في هذا السياق سنعمل في هذه الورقة البحثية على شرح الأسباب التي ساعدت على ازدهار الحركة العلمية في ميدان العلوم الإنسانية خلال القرون 7-9هـ/13-15م، ومن مظاهرها المختلفة التي تجلّت في الإقبال على الفقه والتفسير وعلم الحديث، وانطلاقا من التصرّو نفسه، سنحاول استجلاء طرق التدريس السائدة ومدى فاعليتها، ودور العلماء والمدرسين في تعزيز مكانة المدينة الحضريّة والعلمية، لحاضرة علمية حجزت لنفسها مكانة بارزة ضمن حواضر بلاد الغرب الإسلامي.

1.. عوامل ازدهار الحركة العلمية: يعود ذلك إلى عدة عوامل ساهمت بشكل أو بآخر في تعميق وازدهار الحركة العلمية خلال هذه الفترة، وهذا ما سنتناوله في التالي:

1.1.. دور السلاطين في ازدهار الحركة الفكرية:

لعلّ الشيء اللافت للنظر في حاضرة تلمسان التي كانت حاضرة الدّولة الزيانية، هو العناية الخاصة التي كان يولّيها السّلاطين الزيانيون للعلم والعلماء، ويذكر التنسي أن يغمراسن بن زيان (633-681هـ/1236-1282م) كانت له "في أهل العلم رغبة عالية، يبحث عنهم أينما كانوا" (التنسي، 1985، ص126)، وأنه أقنع – بعد إلحاح طويل – الفقيه العالم أبا إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي سكن تلمسان. وقد أورد عبد الرحمن بن خلدون في كتابه الكبير "العبر" جانبا هاما من الحركة العلمية ودور العلماء في بلاد المغرب الأوسط بشكل عام وتلمسان الزيانية بشكل خاص، ولاهتمام رجال السلطة السياسية بالعلم والعلماء، فيها هو السلطان الزياني أبو حمو الأوّل (707-718هـ/1307-1318م) يقربّ الفقيّهين البارزين ابني الإمام، أبو زيد عبد الرحمن (ت743هـ/1442م)، وأبو موسى عيسى (ت449هـ/1348م)، اللذان سيكون لهما دور بارز في ازدهار الحياة الفكرية بتلمسان عندما "ابتنى المدرسة بناحية المطمر من تلمسان لطلبة العلم،

وابتني لهما دارين عن جانبيهما وجعل لهما التدريس فيها في إيوانين معدين لذلك، واختصهما بالفتوى والشورى، فكانت لهما في دولته قدم عالية" (ابن خلدون، 1968، ص106-107). ويبدو أن مكانة العالمين المذكورين لم تتغير رغم التقلبات السياسية التي عرفتها تلمسان، فهاهو السلطان أبو الحسن المريني (731-752هـ/1331-1351م)، لما اقتحم تلمسان عام 737 هـ/1336م، قام الأخير باستدعائهما (sid ahmed, 1984, p151)، وحضرا ورفعوا إليه أمر الناس، وما نالهم من معرة ووعظاه فأناوب (ابن خلدون، 1968، ص229). ويقدم محمد بن مرزوق الذي أنجز مؤلفا عن هذا السلطان، أنه ضم ابني الإمام إلى مجلسه العلمي، وقام ببناء مدرسة بالعباد بالقرب تلمسان، وهي جامع القصبة عام 748هـ/1347م (بن مرزوق، 1981، ص390). أما السلطان الزياني أبو تاشيفين (718-737 هـ/ 1318-1337م) فقام ببناء المدرسة التاشفينية (بن خلدون، 1968، ص854)، وحتى هذا الأخير كان مقربا من دوائر الحكم في بلاد المغرب الأوسط، فقد استقر بتلمسان عام 776 هـ/ 1374م، ودرّس لسنين بمدرسة العباد وأخذ في نشر العلم (ابن خلدون، 1968، ص1038-1039). كما حرص السلطان الزياني أبو حمو الأول على تقريب أهل العلم منه، حيث استدعى الإمام المشدالي، الذي كان ذائع الصيت بسبب تضلعه في العلوم الشرعية (atallah, s d, 188).

2.1.. دور المدارس والمساجد التعليمية:

إنّ الحركة العلمية في تلمسان عرفت أوج ازدهارها على عهد السلاطين الذين نالوا بسهم في العلوم، وكان تكوينهم الشخصي ينبني في جزء هام منه على الجانب العلمي وهنا يبرز اسم السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني (76-791هـ/1358-1389م) الذي احتفى بأهل العلم، وأقام الصالونات الشعرية عند حلول ليلة المولد النبوي الشريف من كل سنة، وكان هو نفسه—ينظم الشعر. ويقدم لنا التنسي معلومات أكثر تفصيلا مقارنة بالمصادر الأخرى، حول اهتمامات هذا السلطان العلمية والأدبية، حيث ألف كتابا في الآداب السلطانية سمّاه "نظم السلوك في سياسة الملوك"، واصفا مضامين كتاب ذلك السلطان أنه "أتى فيه بالعجب العجائب"، وضمه من رائق نظمه ما أزرى بالسحر الحلال" (التنسي، 1985، ص161). وقد بلغت درجة تأثر الحافظ التنسي بشعر السلطان أبي حمو أنّه جمع أشعاره في كتاب سمّاه "راح الأرواح" فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح". أما السلطان أبو زيان محمد بن أبي حمو (ت 805هـ/1402م)، فكان حسب ابن خلدون يحوّل الشعر (ابن خلدون، 1968، ص1171).

كان شغوفًا بالعلم والمعرفة إلى درجة أنه نسخ بيده نسخا من القرآن الكريم، ونسخة من كتاب "الشفاء" للقاضي عياض².

- المقصود به "كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى" للقافي عياض السبتي، المتوفى سنة 544هـ/1149م، ينظر المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، "ج 1، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، بدون تاريخ النشر، ص23.

لقد انطبع عهد هذا السلطان بالنشاط الفكري والعلمي والمناظرات المختلفة بين الفقهاء والعلماء في مجلسه العلمي، ويورد التنسي أن قصره حفل بمجالس العلم التي نشطت فيها المناظرات والمناقشات العلمية.(التنسي، 1985، ص211).

وخلال فترة القرون 7-8-9 الهجرية ذكرنا أن تلمسان عرفت تشييد العديد من المدارس بإشراف وتشجيع من السلاطين الزيانيين الذين كان لها أفضل الأثر في ازدهار الحركة الفكرية في بلاد المغرب الأوسط بشكل خاص وبلاد الغرب الإسلامي بشكل عام.

وكان يلحق بالمدرسة جناح لإيواء الطلاب الوافدين، ومكتبة تضم مصاحف قرآنية وكتب أخرى في الفقه والحديث والتفسير، كانت عماد المناهج المقررة على الطلبة. وكانت هذه المدارس تعتمد في تغطية نفقاتها، من أعطيات المدرسين، والنفقات المتعلقة بتغطية احتياجات الطلبة من إطعام وإيواء على الحبوس، وإعانات الأمراء والتجار والميسورين (ضو، 2022، ص 77)، ومن أبرز المدارس:

- مدرسة ابني الإمام، وهي المدرسة النظامية الأولى في تلمسان، وهي التي ابتناها السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول، وعين الأخوين ابني الإمام للتدريس بها وبث العلم في جميع أنحاء الدولة الزيانية.

- المدرسة التاشفينية: التي بناها السلطان أبو تاشفين بن أبي حمو (718-737هـ/1318-1337م) ونصّب الفقيه عمران المشدالي³.

- مدرسة العباد: التي أمر ببنائها السلطان أبو الحسن المريني أيام إستلانه على تلمسان عام 748هـ-1347م.

- المدرسة اليعقوبية: أسسها السلطان أبو حمو موسى الثاني عام 765هـ/1336م (التنسي، 1985، ص179).

كما أن المساجد لعبت دورا تربويا وتعليميا أساسيا، ذلك لارتباط بناء المسجد في الإسلام باتخاذ مكانا لدراسة وتحفيظ القرآن الكريم في علم الفقه. واللافت للانتباه أن حاضرة تلمسان على العهد الزياني أخططت بها العديد من المساجد، كالجامع الكبير بتجاررات قرب تلمسان، الذي بناه المرابطون سنة 530هـ/1136م (عبد الكريم، 2015، ص121). وقام السلطان الزياني يغمراسن بن زيان بعد ذلك بتوسعة هذا الجامع، حيث وضع منارة له (mahfoud, 1982,p156). كما شيّد الحكام الزيانيون مسجد أبي الحسن عام 696هـ/1296م، من قبل السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن، الذي قدّم فيه العالم والفقيه أبو الحسن التنسي الدروس العديدة. وهناك مسجد أولاد الإمام الذي بني على عهد السلطان أبي حمو موسى الأول، سنة 710هـ/1310م. وهذا لا يعني أن المساجد الأخرى في تلمسان لم تواكب الحركة التعليمية النشيطة على ذلك العهد، بل ساهمت هي الأخرى في قسط وفير في إشاعة العلم وبثه بين الطلاب والمهتمين، كمسجد العالم الصوفي أبي مدين شعيب بالعباد، قرب تلمسان الذي اختطّ على يد السلطان المريني أبي الحسن سنة 739هـ/1339م، حين احتل تلمسان. كما لا ننسى مسجد سيدي الحلوي الشوذي الذي بني بأمر من السلطان أبي عنان المريني سنة 754هـ/1353م (عبد الكريم، 2015، ص121).

- عمران بن موسى المشدالي اللجائي الأصل. ولد عام 670هـ/1271م، تصفه عديد المصادر بالفقيه الحافظ العلامة، ودرّس الحديث والفقه والفرائض بالمنطق والجدل، كوّن تلاميذ عدّة أبرزهم العلامة أبا عبد الله أحمد المقرّي، توفي عام 745هـ/1344م، ينظر: يحي بن خلدون، بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ت- عبد الحميد حاجيات، ج1، منشورات المكتبة الوطنية، الجزائر 1980، ص 121، وأحمد بابا التنبكي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ت، عبد الحميد عبد الله.....، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1989³، ص 350 وما بعدها.

هكذا تفيد كل المعلومات الميَّنة أن هذه العوامل ساهمت في تنشيط المناظرات الفكرية والعلمية والشعرية في المجالس الخاصة للسلطين، وأصبحت حاضرة تلمسان محط أنظار العلماء وأهل الفكر من الجهات المختلفة، واستقرت بها البيوت المنتحلة للعلم من المشرق والمغرب، بخاصة الجالية الأندلسية التي أسهمت بقسط وافر في إرساء العادات والتقاليد العلمية التي حملتها معها من الأندلس التي كانت بيئة للعلم والمعرفة والفن بامتياز.

2.. طرق التدريس:

لقد تفتن أهل المغرب الإسلامي، منذ وقت مبكر لأهمية التعلّم فاجتهدوا في ترتيب أصوله وضبط قواعده لما فيه من عظيم الفائدة على الأمة. وقد أوضحت بعض المصادر الأولى في هذا الفن، الشروط الواجب توفّرها في المعلّم حتّى يُكوّن طلبة العلم بطريقة سليمة تعود عليهم بالفائدة. حيث يورد الإمام سحنون أن المعلّم لا ينبغي له الانشغال عن الصبيان أثناء الحصة، فلا بأس أن يتحدث وهو يوسع النظر إليهم ويتفقد درجة انتباههم وتركيزهم في المتابعة للدروس العلمية، وينبغي له أن يخصص لهم وقتا يشرح لهم فيه أهم المتون العلمية في حقل العلوم الدينية، ويضيف - سحنون- ألا يضرب الصبيان في الأماكن الحساسة في أجسادهم كالرأس والوجه ، ولا يجوز له أن يمنع وصول طعام وشراب الطلبة الذي يرسله أولياؤهم (بن سحنون، د ت، ص 80-81).

1.2.. نظام التعليم:

عرف نظام التّعليم في تلمسان الزبانية خلال الفترة المذكورة على نظامين بارزين، الأول نظام التعليم الابتدائي الذي يبدأ في الغالب عند بلوغ الطالب سن السابعة، وقد كانت منهجية التعليم في هذه المرحلة تركز أساسا على تلقين التلاميذ الحروف الهجائية، وتعلم الكتابة وتحفيظ القرآن الكريم والحديث الشريف وغيرها من أساسيات العلوم المعروفة على ذلك العهد. هذا وينبغي الإشارة أنه تم تشديد الشروط والصفات الواجب توفّرها في المعلم منها إتقانه لأحكام التجويد من إظهار وإدغام وإعجام، إضافة إلى إحاطته بأحكام اللّغة والكتابة (غرداين، 2017، ص 287). الثاني هو التعليم الاحترافي، وكان يلي مرحلة التعليم الابتدائي، وفيها كان يُترك للطالب حرية اختيار المعلم والأستاذ ، وقد كان لزاما على الأساتذة والمعلمين احترام توجهات وخيارات الطلبة.

مع العلم أن الطلبة كانوا يختارون دراسة اللغة العربية وعلومها والحساب والمنطق، إلّا أنّ دراسة الفقه والتوسع فيه كانت السيمة الطاغية على العلوم المختارة من طرف جميع الطلبة (غرداين، 2017، ص 287).

2.2.. طرائق التدريس:

كانت طريقة التعلّم المعمول بها، هي طريقة الإلقاء والشرح، حيث يقوم أحد الطلبة المتفوقين بقراءة نص كتاب مشهور بصوت جهوري في المادة المدروسة، ويتكفل الأستاذ بشرحه فقرة بعد فقرة، حسب ما تيسّر له من غزارة حفظه وسعة اطلاعه، والتلاميذ يحرصون على تقييد في كرايسهم ما يشد انتباههم من شرح الأستاذ وأجوبته على أسئلتهم. (حاجيات، 1395هـ/1975م، ص 139).

3.. العلوم الدينية المتداولة:

ازدهرت العلوم الدينية بشكل لافت خلال القرون (7-8-9هـ/13-14-15م)، وزاد وهجها بعد أن عرفت نوعاً من التحرر من القوالب الفقهية الصارمة التي فرضها المرابطون (460-541هـ/1068-1146م) بفضل الإصلاح الديني الذي حاول الموحّدون (524-668هـ/1130-1269م) تطبيقه. وتقدم لنا المصادر فيضاً من المعلومات المتعلقة بهذه العلوم وهي:

1.3.. علم الفقه:

كان ركيزة العلوم التي اشتدت همّة الطلاب على الاقبال عليها، وقد عرفت الفترة المذكورة، أسماء فقهاء مشهورين، عاشوا في بلاد المغرب الأوسط عامة، وتلمسان بوجه خاص، حيث استقروا لبث العلم في ربوع تلك البلاد، أبرزهم الفقيه أبو عبد الله بن عبد النور، كانت أصوله حسب عبد الرحمن بن خلدون من ندرومة، كان مبرزاً في الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه (ابن خلدون، 1968، 823). كما برزت أسماء أخرى في هذا الاختصاص العلمي، أبرزهم الفقيهين ابني الإمام، أبو زيد عبد الرحمن، و أبو موسى عيسى، اللذان نبغا في علوم شتى، منها الفقه وطارت شهرتهما في أقطار المشرق والمغرب. (ابن خلدون، 1968، 823).

كما تقدّم لنا العديد من مصادر التاريخ معطيات علمية حول نشاط علم الفقه والتعاطي الكبير إزاءه من علماء وطلبة. فهاهو يحيى بن خلدون يورد بشيء من التدقيق، أبرز الفقهاء، فذكر أبا عبد الله بن مرزوق، وأبا العباس بن مرزوق. (يحيى، 1980، ص 114-115) اللذان ينتسبان لأسرة المرازقة المشهورة، وكانت من البيوتات العلمية التلمسانية التي ذاع صيتها في كامل بلاد الغرب الإسلامي بفضل ما قدمته للعلم خاصة العلوم الدينية من فقه وحديث وغيرها. كما ذكر العالم البارز أبا إسحاق إبراهيم بن خلف بن عبد السلام التنسي، الذي كان حسبه وحيد عصره علماً وديناً. (يحيى، 1980، 126-127)، ويؤكد أيضاً محمد بن مرزوق، صاحب كتاب "المسند" بشيء من تفصيل أسماء الفقهاء الذين ذكر بعضهم يحيى ابن خلدون ولأزموا السلطان المريني أبا الحسن خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري منهم الفقيه الأستاذ التعاليمي المحقق المشارك أبو عبد الله محمد بن علي الآبلي، و من أهل تلمسان الفقيه أبو عبد الله محمد عبد الله بن عبد النور التلمساني، وكان من أهل تلمسان الناشئين فيها، والفقيه أبو العباس أحمد بن الحسن بن سعيد المديوني، والفقيه أبو عبد الله القشتالي، الذي اعتبره من نخبة علماء المغرب في ميدان الفقه، والفقيه أبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي، بالإضافة إلى الفقيه المشهور أبي العباس الزواوي. (ابن مرزوق، 1981، ص 268-269).

ويقدم عبد الرحمن بن خلدون في "المقدمة" أبرز كتب الفقه التي كان ينهل منها الطلبة، وشكلت مادة أساسية في حلقات الدروس، حيث يورد كتاب "الواضحة" لفقيه الأندلس عبد الملك بن حبيب، وكتاب "

المختصر" لابن أبي زيد القيرواني، وكتاب " التهذيب " للفقيه القيرواني أبي سعيد البرادعي، ثم كتاب أبي عمرو ابن الحاجب المشهور بالمختصر، الذي لخص فيه طرق أهل المذهب المالكي. ولما جاء كتابه إلى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة العلم وخصوصاً أهل تلمسان وبجاية وفاس وغيرها من الحواضر (ابن خلدون، 1989، ص451).

وجدير بالذكر، أنه كان لعلماء تلمسان إسهاماتهم أيضاً في علم الفقه وأصوله، أبرزهم أبو عبد الله الشريف التلمساني، الذي صنف في علم أصول الفقه كتاباً سماه "المفتاح في أصول الفقه" (التلمساني، 1980، ص272)، أما سعيد العقباني فآلف شرحاً لكتاب ابن الحاجب الأصلي (بابا التنبكي، 1989، ص189-190)، أما الفقيه محمد ابن مرزوق التلمساني، فآلف تصانيف بارزة أهمها شرحاً على كتاب " الأحكام الصغرى " لعبد الحق الإشبيلي، وشرحاً فرعياً لكتاب ابن الحاجب، عنوانه "إزالة الحاجب على فروع ابن الحاجب" (بابا التنبكي، 1989، ص450 وما بعدها).

3.2.. علم التفسير:

في حقل علم التفسير اشتهر العلامة النابغة عبد الرحمن الثعالبي بتفسيره للقرآن الكريم، وله عدة تأليف أخرى غير ذلك. ومن من ترك بصمة واضحة في هذا العلم، العالم المغيلي، الذي صنف في التفسير كتاباً سماه "البدر المنير في علوم التفسير"، كما كان للعالم محمد السنوسي إسهامه الواضح أيضاً الذي ترك تفسيراً للقرآن الكريم لم يكمله (مفددي، ص167).

3.3.. علم الحديث:

يعرف عبد الرحمن بن خلدون علم الحديث أنه " النظر في الأساليب ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث النبوية بوقوعه على السند المكتمل الشروط، استناداً إلى معرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط (ابن خلدون، 1989، ص441).

مع العلم أن كتاب " صحيح مسلم " وكتاب " صحيح البخاري "، كانت أبرز الكتب التي أقبل عليها أهل المغرب من ضمن الكتب الصحاح الأخرى المعروفة.

ومن أعلام العلماء في تلمسان في ذلك الفن، أبو الحسن بن صيقل الذي كان راوية للحديث مع خصال أخلاقية أخرى ذكرها يحيى بن خلدون، عرف بها هذا العالم كالعدل والصلاح (يحيى، 1980، ص105). كما نبغ ابن مرزوق الحفيد، الذي صنف كتاباً سماه " أنوار الدراري في مكررات البخاري "، وكذلك صنف كتاباً غير تام حول شرح لصحيح البخاري (الغبريني، د ت، ص312-313).

4.. دور التصوف في ازدهار الحركة العلمية:

لقد ردّ الباحثون القدماء والمحدثون كلمة "التصوف" و"الصوفية" إلى أصول مختلفة. فقال فريق أنها تعود إلى أصل إسلامي، أي إلى "الصُفة"، وهي زاوية أقامها الرسول صلى الله عليه وسلم خارج مسجد الصفاء بالمدينة ذات حيطان ثلاثة، كان بعض فقراء المسلمين - وخاصة أولئك المهاجرين الذين لم تؤمن لهم بيوت في المدينة - يأوون إليها اتقاء للحر والبرد (عاطف الزين، 1413هـ/1993م، ص14).

أما ابن خلدون فيرى أن كلمة "التصوف" مشتقة من الصوف الذي يرتديه المتصوفة، وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصّوف. (ابن خلدون، 1989، ص465).

أما اصطلاحاً فيعرف التصوف أنه التفرغ للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإنصراف عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه عموم الناس من ملذات كالمال والجاه، والابتعاد عن الخلق في الخلوة للعبادة (ابن خلدون، 1989، ص467).

يضاف إلى هذا أن حركة علم التصوف في جوهرها أعطت أفقا أوسع لحدود الفهم بقراءة لا تعول على ظاهر النصوص، ويفسر ذلك أن هذه التجربة الدينية هي حالة وجدانية خاصة، يتعدّر التعبير عنها بقوالب لغوية عادية (المصطفى، 2018، ص182).

1.4.. أسباب انتشار التصوّف:

ازدهرت حركة التصوف في تلمسان الزيانية طيلة فترة القرون 7-8-9هـ/13-14-15م لأسباب عدة: - تفكّك الدولة الموحدية أدّى إلى بروز دويلات صغيرة هي: الدولة الحفصية في المغرب الأدنى، والدولة الزيانية في المغرب الأوسط، والدولة المرينية في المغرب الأقصى، وظلت العلاقات بين هذه الكيانات السياسية الصغيرة تتسم بالتشنج والنزاع ما أفضى إلى حالة من عدم الاستقرار السياسي والأمني، دفع بالكثير من سكان المغرب الأوسط إلى الميل للانطواء والعزلة، ومنهم سكان تلمسان، وقد تجاوب الخطاب الصوفي مع هذه النفسانية المحبطة والقلقة.

- دور القبائل العربية السلي في نشر اللاإستقرار، واسترسالها في الضغط على طول حزام المناطق التلية، واتجاه الكثير من الأعراب إلى اللّصوصية وقطع الطريق. ويفهم مما أورده ابن خلدون أن عصره كانت فيه للأعراب سطوة واضحة إذ يشير إلى تغلب القبائل العربية على الضواحي والكثير من الأمصار في بلاد المغرب الأوسط. (ابن خلدون، 1968، ص290). ويؤكد الونشريسي في كتابه "المعيار"، ما ذهب إليه ابن خلدون بهذا الخصوص في إحدى الفتاوى المؤرخة عام 796هـ/1393م أن قسما من الأعراب ليس لهم حرفة إلا شنّ الغارات وقطع الطرقات على المساكين، وسفك دماءهم وانتهاك أموالهم بغير حق (أبو العباس، 1981، ص435). - الأوبئة والمجاعات، كالطاعون الجارف عام 749هـ/1348م، الذي أهلك الحرث والنسل بكثرة الموتى، كما عرفت سنوات 723-724هـ قحطا شديدا ببلاد المغرب الإسلامي، وارتفاعا عاليا في الأسعار. الشيء الذي خلف ضياعا في أرواح البشر وتدهور المستوى المعيشي بسبب قلة المحاصيل الفلاحية (عبيد، د ت، ص186). إن كل هذه العوامل دفعت بالكثير من الناس إلى اعتبار ذلك غضبا من الله يقتضي تصحيح التّوبة، وهذا ما أدى إلى تقوية الشعور الديني، ووجد الإنسان في الميل للعبادة وسيلة للتهرب من هذه الحياة المليئة بالتناقضات والأعباء الاجتماعية والنفسية.

هذا إلى جانب وجود مدرسة للتصوّف في المغرب الأوسط وضع أساسها المتصوّف الشهير أبو مدين شعيب (ت 594هـ/1198م) من خلال طلبته وأتباعه الكثر في بجاية وتلمسان وكامل بلاد المغرب الإسلامي، بعد رحلته العلمية والروحية الغنية إلى بلاد المشرق، حاملا بعد عودته كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي،

وكتاب "الرسالة" للإمام القشيري، وتصديه لتدريس التصوف وبث أفكاره ومضامينه الفكرية والأخلاقية (محمد الأمين، 2017، ص5-9).

2.4.. أعلام التصوف في تلمسان وتأثيرهم العلمي:

أوردت المصادر التاريخية وكتب التراجم الأخرى التي دوّنت في فترة القرون 7-9 هـ/13-14-15 م عديد المتصوفة الأعلام. فيحي بن خلدون ذكر أبا إسحاق التنسي الذي كان حسب رأيه من العلماء الصالحين الأولياء، كما ذكر أيضا أبا عثمان ابن الخياط واعتبره متصوفا كبيرا عظيم الأثر على صعيد التربية والسلوك الصوفي، وزودنا أيضا بعالم آخر هو أبو يعقوب التيفريسي الذي اعتبره من الأولياء الكبار (يحي، 1980، ص107-114-117).

وقد أخذت الحركة الصوفية بفضل هؤلاء المتصوفة الأعلام تتغلغل بتعاليمها وسط عامة الناس خاصة بتلمسان، لأنهم عبّروا عن أفكارهم بلغة بسيطة تركّز على تهذيب النفس الإنسانية على الصبر والتواضع، وكان هذا من أبرز خصائص هذه الحركة الصوفية. مع العلم أنّ هذا الاتجاه الصوفي يبدو أنه أثر على المناخ العام للحياة الفكرية في المغرب الأوسط عامة، وتلمسان بشكل خاص، ذلك أن التصوف أثر في جلّ علماء العصر طيلة تلك الفترة.

ومن نافل القول أن تأثير المتصوفة لم يشمل عامة الناس - فقط - والذي تبدّى من خلال الهيبة والوقار والاحترام الذي تأصل في نفوسهم، وإنما حازوا أيضا مساحة هامة من الاحترام والاعتبار من لدن السلاطين ورجال الحكم.

5.. خاتمة:

إن المعطيات التي ضمناها هذه الورقة، تسمح لنا باستخلاص الرأي الذي مفاده أنّ العلوم الدينية من فقه وتفسير وعلم حديث، وتصوف، ازدهرت بشكل لافت في تلمسان خلال الفترة التاريخية المدروسة، نتيجة لتظافر عوامل عديدة، كان من أهمها تشجيع السلاطين وأهل الحكم للعلم والعلماء، بل اعتبروه من صلب مهامهم التي يطّلعون بها. كما أن هذه الحاضرة أنجبت علماء أفذاذ، كانت لهم بصمتهم الواضحة في ميدان التأليف والتدريس، كما تميزت أيضا بالانفتاح وتبدّى ذلك من خلال استقبالها لعلماء بارزين من بلاد الغرب الإسلامي، والذين استحبوا التوجه إليها والاستيطان بها، وما عاد من ذلك من استفادة من علمهم وخبرتهم التي لاحظناها في مجالس السلاطين، ووقوفهم للتدريس بالمعاهد والمدارس المشيدة بالمدينة، وبث العلم للطلبة والمهتمين.

6.. الهوامش أي التعليقات والشروحات:

- 1- المقصود به "كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى" للقاقي عياض السبتي، المتوفى سنة 544 هـ/1149 م، ينظر المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، "ج1، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، بدون تاريخ النشر، ص23.

2- عمران بن موسى المشدالي اللجائي الأصل. ولد عام 670هـ/1271م، تصفه عديد المصادر بالفقيه الحافظ العلامة، ودرّس الحديث والفقه والفرائض بالمنطق والجدل، كَوّن تلاميذ عدّة أبرزهم العلامة أبا عبد الله أحمد المقرئ، توفي عام 745هـ/1344م، ينظر: يعي بن خلدون، بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ت- عبد الحميد حاجيات، ج1، منشورات المكتبة الوطنية، الجزائر 1980، ص 121، وأحمد بابا التنبكي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ت، عبد الحميد عبد الله.....، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1989، ص 350 وما بعدها.

7..قائمة المصادر والمراجع :

- ابن خلدون. (1989).، المقدمة، ط1. بيروت: دار القلم.
- أحمد بابا التنبكي. (1989). نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ت، عبد الحميد عبد الله. طرابلس، ليبيا: منشورات كلية الدعوة الإسلامية.
- بوداود عبّيد. (د ت). ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (ق13-15م). وهران- الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.
- حساين عبد الكريم. (مارس، 2015). الحركة العلمية بالمغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (13-15م). مجلة آفاق فكرية، العدد الثاني .
- خالد ضو. (2022). مظاهر الحركة العلمية في الدولة الزيانية وأثارها. مجلة الذاكرة، المجلد 10/ العدد 02 .
- زكريا مفدي. (بلا تاريخ). النشاط العقلي والتقدم الحضاري بالجزائر في عهد الزيانيين. مجلة الأصالة .
- سميح عاطف الزين. (1413هـ/1993م). الصوفية في نظر الإسلام. دراسة وتحليل ، الطبعة الرابعة 1993م/1413هـ بيروت: الشركة العالمية للكتاب.
- شرويك محمد الأمين. (2017). انتقال التصوف إلى بلاد المغرب الإسلامي. مجلة آفاق فكرية، العدد 6.
- عبد الحميد حاجيات. (جويلية—أوت، 1395هـ/1975م). الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان. مجلة الأصالة، السنة الرابعة، العدد 26، رجب- شعبان .
- عبد الرحمن ابن خلدون. (1968). العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- الغبريني. (د ت). عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، ت رابح بونار. الجزائر: منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- محمد بن سحنون. (د ت). كتاب آداب المعلمين، ت. محمد عبد المولى، . الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- محمد بن عبد الله التنسي. (1985). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرّ والعقبان في بيان شرف بني زيان، ت محمد بوعياذ. الجزائر: إصدار المكتبة الوطنية.
- محمد بن مرزوق. (1981). ، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، ت، ماريا خيسوس بيغيرا. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- مسالي المصطفى. (2018). فلسفة الدين عند السادة الصوفية...مقاربات. مجلة آفاق فكرية، المجلد 4، عدد خاص .

مغنية غرداين. (سبتمبر، 2017). قراءة في الحركة العلمية بتلمسان الزبانية 633-942هـ/1236-1554م. مجلة علوم الانسان والمجتمع، العدد 24.

المقري التلمساني. (1980). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج5، ت إحسان عباس. بيروت: دار صادر.

الونشريسي أبو العباس. (1981). المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء، ج2، بإشراف د. محمد حجي. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

يحي ابن خلدون. (1980). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ت عبد الحميد حاجيات. الجزائر: منشورات المكتبة الوطنية.

atallah, d. (s d). le royaume abdelouadide a l'epoque, et d'abdou hammou moussa l'ére .
alger: office des publication universitaire alger.

mahfoud, k. (1982). l'algerie medievale. alger: snep alger.

sid ahmed, b. (1984). les deux grands sieges de tlemcen. alger: snep alger.